المبحث الثاني : رحمة الله بالصالحين

لقد عرض القرآن لقطات من حياة الصالحين، وعرض بعضا منهم للعبرة كدروس تربوية، ومن هؤلاء أصحاب الكهف، الفتية الذين آمنوا بربهم، وكيف يرعى الله هذه النفوس المؤمنة، ويقيها الفتنة، ويشملها بالرحمة، ونراهم يسترجون رحمة الله، فتنالهم ونراهم يحسون رحمة الله ظليلة فسيحة ممتدة، فإذا الكهف الضيق المظلم يتحول مكان واسع ومملوء بالدفء والضياء، فيه السعة والبحبوحة والانفساح، ينقلب الكهف فضاء فسيح رحيب وسيع، تنتشر فيه الرحمة، وتشملهم بالرفق واللين والرخاء.

وهذا الخضر يهبه الله نعمة عظيمة، وفضلا كبيرا، وهي الكرامات التي أظهرها الله على يديه، وعلمه علما خاصا به سبحانه، لا يعلَّم إلا بتوفيقه، وهو علم الغيوب، فتكون تصرفاته وفق رحمة الله، فجمع الله له بين العلم والرحمة، ويكشف الله للخضر عن حقيقة غلام بأنه لو عاش لأرهق والديه، فيرحم الله الأبوين الصالحين، فأراد الله ووجّه إرادة عبده الصالح إلى قتل هذا الغلام، ثم يرحم الله تعالى على يد هذا العبد الصالح الغلامين اليتيمين لأن أبوهما كان صالحا، فإن الله يحفظ بصلاح العبد ولده، وولد ولده، وعترته وعشيرته، وأهل دويرات حوله، فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم، فأراد الله أن يبلغا ويعقلا، و أن يدركا شدهما وقوهما، ثم يستخرجا حينئذ كَنْزَهُمَا، نعمة من الله.

ونرى ذي القرنين يشرع في بناء السد ومن رحمة الله أن مكّنه من بنائه وأعانه عليه، فقال: هذا التمكين رحمة من ربي.

لقد كانت تصرفات الصالحين وفق رحمة الله تعالى، وكذلك أفعالهم كانت رحمة، ولقد حفتهم الرحمة أينما حلوا، وأينما رحلوا، فتراهم يلجئون إلى رحمة الله، في الكهف كي لا تُمسّ العقيدة، ويهبهم الله الهدى والرحمة والعلم، حتى تكون تصرفاتهم وفق منهج الله تعالى، و تتجلى الرحمة حينا آخر في قضاء الله لهم، وبما يريده الله لهم من خير، وبما ينعم الله عليهم من النعم والخير، إنه ثمرة الإخلاص والتقوى لله عز وجل، إنهم عباد الله الصالحين.

1ـ رحمة الله بأصحاب الكهف :

وقصة أصحاب الكهف وهي نموذج لإيثار الإيمان على باطل الحياة وزخرفها، والإلتجاء إلى رحمة الله في الكهف هربا بالعقيدة أن تمس.

يقول سيد قطب: تجيء قصة أصحاب الكهف، فتعرض نموذجا للإيمان في النفوس المؤمنة، كيف تطمئن به، وتؤثره على زينة الأرض ومتاعها، وتلجأ به إلى الكهف حين يعز عليها أن تعيش به مع الناس، وكيف يرعى الله هذه النفوس المؤمنة، ويقيها الفتنة، ويشملها بالرحمة[1].

قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾[2]

أي اذكر حين التجأ الشبان إلى الغار في الجبل وجعلوه مأواهم، (فإنهم كانوا فتية من أشراف الروم، أرادهم دقيانوس على الشرك، فهربوا منه بدينهم، فقالوا: ربنا آتنا من خزائن رحمتك الخاصة، المكنونة عن عيون أهل العادات، آتنا من لدنك رحمة خاصة تستوجب المغفرة والرزق والأمن من الأعداء، وهيىء لنا من أمرنا الذي نحن عليه من مهاجرة الكفار والمثابرة على طاعتك، وأصلح ورتب وأتمم لنا من أمرنا رشدا، إصابة للطريق الموصل إلى المطلوب واهتداء إليه)[3]، وحتى نكون بسببه راشدين مهتدين، أو اجعل أمرنا رشدا[4].

وقال القرطبي في قوله تعالى: (وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً): توفيقا للرشاد، وقال ابن عباس: مخرجا من الغار في سلامة، وقيل صوابا، ومن هذا المعنى أنه عليه السلام كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[5].

ومعنى الرحمة الهداية في الدين، وقيل الرزق، (وهيء لنا) يسر لنا من أمرنا رشدا، أي ما نلتمس من خير رضاك وما فيه رشدنا.[1]

---

1 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 4 / 2259 ـ 2260 ـ 2261.
2 ـ الكهف (10).
3 ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود، 5 / 206.
4 ـ تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط1، 1417هـ / 1997م.
5 ـ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 10 /362.

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً﴾ [2]

وهنا ينكشف العجب في شأن القلوب المؤمنة، فهؤلاء الفتية الذين يعتزلون قومهم، ويهجرون ديارهم، ويفارقون أهلهم، ويتجردون من زينة الأرض ومتاع الحياة، هؤلاء الذين يأوون إلى الكهف الضيق الخشن المظلم، هؤلاء يسترجون رحمة الله، ويحسون هذه الرحمة ظليلة فسيحة ممتدة، ينشر لكم ربكم من رحمته، ولفظة ينشر تلقي ظلال السعة والبحبوحة والانفساح، فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب وسيع، تنتشر فيه الرحمة، وتتسع خيوطها وتمتد ظلالها ، وتشملهم بالرفق واللين والرخاء، إن الحدود الضيقة لتتراح، وإن الجدران الصلدة لترق، وإن الوحشة الموغلة لتشف، فإذا الرحمة والرفق والراحة والارتفاق... إنه الإيمان..

وما قيمة الظواهر؟ وما قيمة القيم والأوضاع، والمدلولات التي تعارف عليها الناس في حياتهم الأرضية؟ إن هنالك عالما آخر في جنبات القلب المغمور بالإيمان، المأنوس بالرحمن، عالما تظلله الرحمة، والرفق والاطمئنان والرضوان[3].

2 ـــ الرحمة من الله مع الخضر أينما رحل وأينما حل:

قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ [4]

أي وجدا الخضر عليه السلام عند الصخرة التي فقد عندها الحوت، ويقول عن الخضر عليه السلام: (آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا) الرحمة في هذه الآية: النبوة، وقيل النعمة، (وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً) أي علم الغيب، وقيل: كان علم الخضر علم معرفة بواطن، قد أُوحيت إليه لا تعطى ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها، وكان علم موسى علم الأحكام والفتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم[5].

والرحمة: هي الوحي والنبوة، كما يشعر به تنكير الرحمة واختصاصها بجناب الكبرياء، وعلمناه من لدنا علما خاصا لا يكتنه كنهه، ولا يقادر قدره، وهو علم الغيوب[6].

---

1 ـ تفسير البغوي، المسمى معالم التنزيل، الحسين بن مسعود الفراء البغوي، 3 / 152.
2 ـ الكهف (16).
3 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 4 / 2262.
4 ـ الكهف (65).
5 ـ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 11/ 16.
6 ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، 234/5.

فوهب الله الخضر عليه السلام نعمة عظيمة، وفضلا كبيرا، وهي الكرامات التي أظهرها الله على يديه، وعلمه علما خاصا به سبحانه، لا يعلَّم إلا بتوفيقه، وهو علم الغيوب، قال العلماء: هذا العلم الرباني ثمرة الإخلاص والتقوى، ويسمى (العلم اللدني) يورثه الله لمن أخلص العبودية له، ولا ينال بالكسب والمشقة، وإنما هو هبة الرحمن، لمن خصَّه الله بالقرب والولاية والكرامة.

والهدى والرحمة والعلم، من أعظم الغايات، قال ابن القيم في ذلك:

إذا سلِم العبد من فتنة الشبهات والشهوات، حصل له أعظم غايتين مطلوبتين، هما سعادته وفلاحه وكماله، وهما الهدى والرحمة، قال تعالى عن موسى وفتاه: (فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً) [1]، فجمع له بين الرحمة والعلم[2]، فذكر من نعمه عليه تعليمه وما آتاه من رحمته[3].

ـ رحمة الله بالأبوين الصالحين:

ثم يتصرف الخضر تصرفات تبعث الريبة والشك في نفس موسى عليه السلام، فيأتي التعليق على تلك التصرفات بالتأويل الصحيح، وأنها وفق رحمة الله تعالى، فقتل الغلام البريء إنما كان رحمة بوالديه، كيف ذلك؟ يأتي الجواب من العبد الصالح بتأويل ذلك:

قال تعالى:﴿ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً، فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾ [4]

يقول سيد قطب: فهذا الغلام الذي لا يبدو في حاضره ومظهره أنه يستحق القتل، قد كشف ستر الغيب عن حقيقته للعبد الصالح، فإذا هو في طبيعته كافر طاغ، تكمن في نفسه بذور الكفر والطغيان، وتزيد على الزمن بروزا وتحققا.. فلو عاش لأرهق والديه المؤمنين بكفره وطغيانه، وقادهما بدافع حبهما له أن يتبعاه في طريقه، فأراد الله ووجّه إرادة عبده الصالح إلى قتل هذا الغلام، الذي يحمل طبيعة كافرة طاغية، وأن يبْدلهما الله خلفا خيرا منه، وأرحم بوالديه.

---

1 ـ الكهف (65).
2 ـ إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ابن القيم، 168/2، دار المعرفة ـ بيروت، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط2، 1395هـ/1975م.
3 ـ مفتاح دار السعادة ، ابن القيم، 57/1، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط2، 1393هـ/1973م.
4 ـ الكهف (80 ـ 81).

ولو كان الأمر موكولا إلى العلم البشري الظاهر، لما كان له إلا الظاهر من أمر الغلام، ولما كان لـــه عليه من سلطان ، وهو لم يرتكب بعد ما يستحق عليه القتل شرعا، وليس لغير الله ولمن يطلعه من عباده على شيء من غيبه، أن يحكم على الطبيعة المغيبة لفرد مـــن الناس، ولا أن يرتب على هذا العلم، حكما غير حكم الظاهر الذي تأخذ به الـــشريعة، ولكنه أمر الله القائم على علمه بالغيب البعيد[1].

ويقول البيضاوي في هذه الآية: أن يرزقهما ولدا خيرا منـــه طهـــارة مـــن الـــذنوب والأخلاق الرديئة وأقرب رحمة وعطفا على والديه، وقيل ولدت لهما جارية فتزوجها نبي، فولدت له نبيا هدى الله به أمة من الأمم[2].

وعند البغوي[3]: (خيرا منه زكاة) أي صلاحا وتقوى، (وأقرب رحما) أي عطفا مـــن الرحمة، وقيل: هو من الرحم والقرابة، قال قتادة: أي أوصلُ للرحم، وأبر بوالديه، وقيل: أبدلهما الله جارية ولدت سبعين نبيا، وقيل: أبدلهما بغلام مسلم، وقيل: فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله تعـــالى، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره، خير له من قضائه فيما يحب[4].

ـــ رحمة الله بالغلامين اليتيمين لأن أبوهما كان صالحا :

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾[5].

وكان الغلامين اليتيمين اسمهما أصرم وصريم، والكنز كان ذهبا وفضة،عن ابن عبـــاس أنه قال: كان لوحا من ذهب، مكتوبا فيه: عجبا لمن أيقن بالموت كيف يفرح، عجبا لمن أيقن بالحساب كيف يغفل، عجبا لمن أيقن بالرزق كيف يتعب، عجبا لمن أيقن بالقـــدر كيف ينصب، عجبا لمن أيقن بزوال الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله، وفي الجانب الآخر مكتوب، أنا الله لا إله إلا أنا وحدي لا شـــريك لي،

1 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 4 / 2281.
2 ـ انظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، 3 / 516 ـ 517.
3 ـ **البغوي:** هو الحسين بن مسعود الفراء البغوي، فقيه محدث ومفسر، لـه معالم التنزيل في التفسير، ومصابيح السنة والتهذيب في فروع الفقه الشافعي وغيرها، توفي في بلدة مرو الروذ، في شوال سنة 516هـ، انظر(معجم المؤلفين 644/1).
4 ـ معالم التنزيل، البغوي، 3 / 176 ـ 177.
5 ـ الكهف (82).

خلقت الخير والشر، فطوبى لمن خلقته للخير، وأجريته على يديه، وهذا قول أكثر المفسرين، وروي ذلك مرفوعا، وقيل ـــ أبوهما ـــ كان اسمه كاشح، وكان من الأتقياء، قال ابن عباس: حفظا بصلاح أبيهما، وقيل: كان بينهما وبين الأب الصالح سبعة آباء، وقيل: إن الله يحفظ بصلاح العبد ولده، وولد ولده، وعترته وعشيرته، وأهل دويرات حوله، فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم، فأراد ربك أن يبلغا ويعقلا، و أن يدركا شدهما وقوهما، أو يبلغا ثمان عشرة سنة، ويستخرجا حينئذ كَنْزَهُمَا، نعمة من ربك، ثم قال الخضر لموسى: ما فعلت ذلك باختياري ورأيي، بل فعلته بأمر الله وإلهامه، ذلك تفسير ما لم تطق عليه صبرا، روي أن موسى لما أراد أن يفارقه قال لـه: أوصني، قال لا تطلب العلم لتحدث به واطلبه لتعمل به[1].

فهذا الجدار الذي أتعب الرجل نفسه في إقامته، و لم يطلب عليه أجرا من أهل القرية – وهما جائعان وأهل القرية لا يضيفوهما – كان يخبيء تحته كترا، ويغيب وراءه مالا لغلامين يتيمين ضعيفين في المدينة، ولو ترك الجدار ينقض لظهر من تحته الكنز، فلم يستطع الصغيران أن يدفعا عنه، ولما كان أبوهما صالحا فقد نفعهما الله بصلاحه في طفولتهما وضعفهما، فأراد أن يكبرا ويشتد عودهما، ويستخرجا كنزهما، وهما قادران على حمايته، ثم ينفض الرجل يده من الأمر، فهي رحمة الله التي اقتضت هذا التصرف، وهو أمر الله لا أمره، فقد أطلعه على الغيب في هذه المسألة وفيما قبلها، ووجهه إلى التصرف فيها وفق ما أطلعه عليه من غيبه، رحمة من ربك[2].

3 ـــ من رحمة الله بذي القرنين:

تأتي هذه القصة لترسم لنا رجلا صالحا، وقائد ورعا ناجحا، متواضعا، ينسب كل عمل عظيم صالحا إلى توفيق الله لـه، وأن لا حول لـه ولا قوة إلا بالله، وهذه طبيعة القادة الصالحين حين يمن الله عليه بالنعم، يزدادون شكرا وإقرارا واعترافا بنعم الله عليهم، ولا يغترون بقوهم وسلطانهم، قال تعالى: ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً﴾[3]

1 ـ معالم التنزيل، للبغوي، بالتصرف، 3 / 177.
2 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 4 / 2281.
3 ـ الكهف (93 - 97).

قال ذا القرنين: هذا السد، نعمة من ربي، فإذا جاء يوم القيامة ـــ وقيل وقت خروجهم ـــ جعله أرضا ملساء، أو جعله مدكوكا مستويا مع وجه الأرض[1]، وقال السعدي: في قوله تعالى: (هذا رحمة من ربي) أي: من فضله وإحسانه عليَّ، وهذه حال الخلفاء والصالحين إذا منَّ الله عليهم بالنعم الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم واعترافهم بنعمة الله[2]، وقال الشوكاني: قال ذو القرنين مشيرا إلى السد هذا السد رحمة من ربي أي أثر من آثار رحمته لهؤلاء المتجاوزين للسد، ولمن خلفهم ممن يخشى عليه معرتهم، لو لم يكن ذلك السد، وقيل الإشارة إلى التمكين من بنائه[3]، أي من رحمة الله أن مكن ذي القرنين من بنائه هذا السد وأعانه عليه، وقال النحاس: أي هذا التمكين رحمة من ربي[4]،(فإذا جاء وعد ربي) أي يوم القيامة وقيل وقت خروجهم، (جعله دكا) أي مستويا بالأرض[5]، (وكان وعد ربي حقا) أي وعده المعهود، أو كل ما وعد به فيدخل فيه ذلك دخولا أوليا (حقا) ثابتا لا محالة واقعا البتة وهذه الجملة تذييل من ذي القرنين[6].

1 ـ معالم التنزيل، للبغوي، 3/ 72- 73.
2 ـ تفسير السعدي، السعدي، 1 / 486.
3 ـ فتح القدير، الشوكاني، 3/ 313.
4 ـ معاني القرآن الكريم، أبي جعفر النحاس، 4 / 296، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط1، 1409هـ / 1989م.
5 ـ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 11 / 63.
6 ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبوالسعود، 5 / 247.